ISSN 1016 - 4030

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها
مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

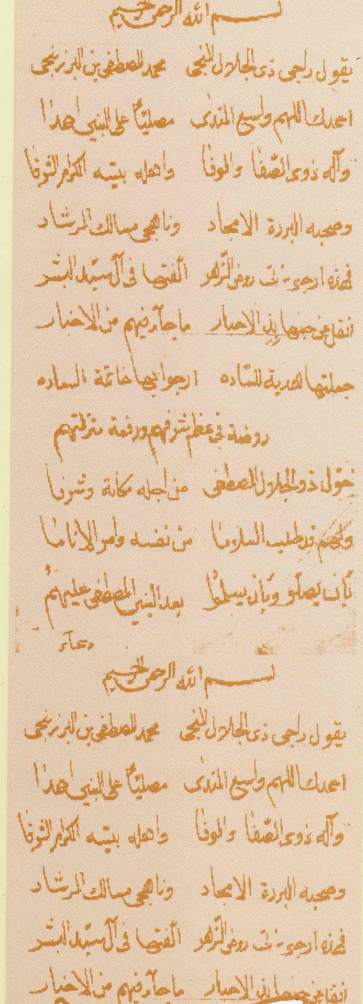

العدد الثاني [١٣٨]
السنة الخامسة والثلاثون / ربيع الآخرة ـ جمادى الآخرة ١٤٤٠ هـ

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

* الإسهام في النشرة باب مفتوح لجميع العلماء والمحقّقين والباحثين والمعنيّين بشؤون تراث أهل البيت عليهم السلام .
* الآراء المنشورة لا تعبِّر عن رأي النشرة بالضرورة .
* ترتيب المواضيع يخضع لأُمور فنّية وليس لأيّ أمر آخر .
* النشرة غير ملزمة بنشر كلّ ما يصل إليها أو بإعادته إلىٰ أصحابه .

المراسلات : تعنون باسم : هيئة التحرير .
دورشهر ـ خيابان شهيد فاطمي ـ كوچه ٩ ـ پلاك ١ و ٣
هاتف : ٥ ـ ٣٧٧٣٠٠٠١ ـ **فاكس :** ٣٧٧٣٠٠٢٠ .
البريد الألكتروني : *e-mail : turathona@rafed.net*
ص . ب . ٩٩٦ / ٣٧١٥٦٥٣٧٧١ ـ قم ـ الجمهورية الإسلامية في إيران .
تراثنا .
العدد : الثاني [١٣٨] السنة الخامسة والثلاثون / ربيع الآخر ـ ١٤٤٠ هـ .
الإعداد والنشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث .
الكمّيّة : ٢٠٠٠ نسخة .
الفلم والألواح الحسّاسة : تيزهوش ـ قم .
المطبعة : الوفاء ـ قم .
الاشتراك السنوي : ٢٠٠٠ تومان في إيران ، و ٢٥ دولاراً أمريكياً في بقيّة أنحاء العالم .

بحور الشعر وتفعيلاته
(الإعجاز الأدبي في القرآن)

السيّد محمّد علي راضي الحكيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، ثمّ الصلاة والسلام علىٰ خير البريّة محمّد وعلىٰ آله الطيّبين الطاهرين.

أمّا بعد:

إنّ تراث مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا زال حافلاً بأبحاثه الثرّة في شتّىٰ مجالات العلوم من أدب وأصول وفقه ومنطق وفلسفة وكلام وما إلىٰ ذلك من التراث العلمي من مدارس وشخصيّات ومصنّفات و...، فإنّ السجال العلمي لا زال مشعله وقّاداً لمن أراد أن يملي بحثاً أو يزجي انتقاداً، ولا زال العطاء العلمي لهذه المدرسة بين ترغيب وتنقيب ونقد وتصويب، ويعدّ الأدب العربي من تلكم الأبحاث الثرّة والعلوم الغرّة التي لابدّ لروّاد العلم من التوجّه إليه بشكل جادّ لإحياء هذا التراث الذي طالما اعتنىٰ به السلف الصالح من علمائنا الأبرار، وذلك ما نرىٰ أعلامه لائحةً في مصنّفاتهم وبحوثهم وأسلوبهم

البياني وحسن تعبيرهم في كافّة مجالات الأدب من نثر وشعر وسجع ، فإنّ للأدب العربي من الظرافة والملاحة والدقّة ما يبهر الألباب ، ويأنس به من ارتاده بكلّ إعجاب ، وخاض إليه سُبُلَ الطلّاب .

تمهيد :

لقد جاءت مقالتي هذه بعد أمدٍ طويل وشوط وسبيل طويته في دراسة الأدب العربي ، تلك الدراسة التي تعرّفت عليها في الحوزة العلمية من صرف ونحو وعلم البيان فكانت تبهرني تلك العبارات والجمل وقد أعجبت بها كلّ إعجاب حيث كنت أرىٰ بها جمال اللغة العربية وأدبها الثرّ ، وممّا أدهشني رغبةً وزادني شوقاً لمعرفة تلكم الفنون هو كتاب **البهجة المرضية** لجلال الدين السيوطي في شرح ألفية ابن مالك التي كان لها الأثر الكبير لأن أخوض غمار الأدب من بين تلكم المسالك ، وبعد دراستي تلك الألفية وتطلّعي عليها ازدادت رغبتي في معرفة الشعر وأوزانه ، فعكفت همّتي علىٰ دراسة أطواره وفنون بيانه ، كما كان للشواهد الشعرية في النحو وعلم البيان الوقع والأثر الكبير في مثابرتي إلىٰ جانب الشعر والأدب .

فكلّما ازدادت ملكتي الشعرية قوّة ازداد إعجابي بآيات الذكر الحكيم وبالمأثور من أدعية أهل البيت عليهم السلام وخطبهم وكلامهم ، كما كنت أرىٰ به من الوقع الجميل في البيان والتعبير والنغم الخاصّ بها والذي لم أرَ لهما مثيلاً في بيان العرب من نثر وسجع وذلك دون الشعر الذي يمتاز بالأوزان الشعرية وهي البحور التي يتكوّن منها الشعر العربي وما في تلك البحور من تفعيلات

منحت الشعر العربي وقعاً ونغماً خاصّاً به .

القرآن الكريم وبحور الشعر :

لطالما تعرّفت علىٰ وجود بحور الشعر العربي في آيات الذكر الحكيم ، فكنت أحاول أن أدخلها في نظم بنفس ذلك البحر الذي هي عليه ، فكانت تنجح محاولتي فأزداد فيها بهجة واندهاشاً ، وكان يدخلني من السرور ما لا يعلمه إلّا الله تبارك وتعالىٰ ، ومن أوّل ما نظمته من آيات الذكر الحكيم بادئ الأمر من معرفتي الأوزان الشعرية والتطلّع علىٰ آثارها في القرآن الكريم هو نظمي لقوله تعالىٰ : ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾ حيث جاءت الأبيات آنذاك علىٰ هذا المنوال :

يا كعبةً بالعزّ ما أسماها ... ولها من الآيات ما أجلاها
هي غايةٌ هي آيةٌ هي رايةٌ ... من حولها الملأ العظيم حواها
والله أسّسها بوادي بكّةٍ ... وإلىٰ العبادة والدعاء ذراها
وبإذنه قام الخليل مطهّراً ... أركانها للناس من يهواها
للطائفين العاكفين وركّعٍ ... أو سجّدٍ لله كان هداها
ما كان هذا العزُّ من أحجارها ... من نوره الرحمٰن جلّ حباها
إذ جاء إبراهيم يرفع وابنه ... تلك القواعد فاستتمّ بُناها
وسرت بها الأيّام حتّىٰ أصبحت ... علماً بهذا الكون عمّ صداها
لمّا تقلّب وجه أحمد في السما ... ورمت له السفهاء جمرَ لضاها
نزلت تبشّر هادياً آياته ... ﴿**لَنُوَلِّيَنّك قبلةً ترضاها**﴾

وهكذا صرت آنس كلّما نظمت شعراً وضمّنت فيه شيئاً من آيات الكتاب، أو اقتبست معنىً من معاني الآيات القرآنية في الشعر، وهكذا صرت أستشعر وأزداد يقيناً يوماً بعد يوم أنّ هناك نوع ارتباط بين القرآن الكريم وبين المأثور من أدعية وخطب المعصومين عليهم السلام، ولابدّ من أن يكون هذا الارتباط هو نوع ارتباط بعلوم الأدب العربي وذلك لما كنت أدركه من وقع وإيقاع ونغم من كلا الجانبين ـ وإنّما أعني بالنّغَم هو الإيقاع الذي يشعر به المستمع أو الشاعر من الشعر ـ فكان التفكّر والتدبّر بهما والعمل عليهما بشكل دؤوب هو الطريق الوحيد لمعرفة السبب فيها وذلك ما سيأتي خلال البحث في إماطة الستار عن ضرب من ضروب إعجاز القرآن الكريم وسرّ فصاحة وبلاغة أئمّة الهدىٰ وسادة البيان.

وطالما كانت تطرق سمعي أبحاث أو أطّلع عليها بين الفينة والأخرىٰ أنّ آيات القرآن الكريم تحتوي علىٰ أوزان الشعر العربي، واطّلعت علىٰ العديد منها حيث أضحىٰ القرآن بين منازع ومدافع، ولكن كلّما يقال في الدفاع عن كتاب الله هو أنّ القرآن ليس بشعر؛ لأنّ آيات القرآن لم يكن لها وزن وقافية وإن كانت تحتمل بعضها للأوزان الشعرية وذلك أنّ الشعر يتكوّن من صدر وعجز وقافية تعرف بها أبياته أو القصيدة الشعرية، وهو جواب مقنع ولا بأس به إلىٰ حدٍّ ما، ولكن الأمر لا يقتصر علىٰ هذا فحسب؛ بل إنّ للقرآن فنّاً وهندسةً ونسيجاً يحيّر الفِكَرْ وتضطرب لديه العِبَرْ ويطأطئ إليه كلّ لبيب من الجنّ والبَشَرْ، وهو الكتاب الذي لا زال يدعو الهِمَمَ أن يأتوا بمثله

أو بعشر سور من مثله أو حتّىٰ بسورة من مثل سور الكتاب الحكيم، ولكن كيف لنا أن نتعرّف علىٰ ذلك السرّ لنعلم وتتمّ لنا الحجّة أنّ القرآن الكريم لا يمكن لأحد أن يباريه ويجاريه وأنّه هو الإعجاز الخالد مدىٰ العصور والدهور والآية الناصعة والرسالة الساطعة التي لو جاز السجود لغير الله لكان من الجدير أن نسجد لكلّ آية وكلّ كلمة وحرف من آيات الذكر الحكيم؟

فما هو ذلك الفنّ وتلكم الهندسة وذاك النسيج القرآني التي ترتبط بأسرها بفنٍّ من فنون الأدب العربي والذي تعجز الألباب والأوهام أن تأتي بمثله؟

ولماذا كانت تَنْشَدّ إليه العرب آنذاك كلّما قرعت أسماعهم آيات الذكر الحكيم التي كان يتلوها عليهم رسول الله ﷺ من لدن عزيز حكيم؟

ولماذا كانوا يتّهمون رسول الله ﷺ بأنّه شاعرٌ ومعلّمٌ مجنون؟

فهذه الأسئلة ما سنتوصّل إلىٰ الإجابة عليها من خلال بحثنا هذا بحوله وقوّته، فعليه أتوكّل وبه أستعين وهو نعم المولىٰ ونعم النصير المعين.

البيان العربي والقرآن الكريم:

نعلم أنّ البيان العربي يتألّف من ثلاث مكوّنات وهي: النثر والسجع والشعر، وكلّ من هذه العناوين الثلاثة لها مباحثها العلمية في كتب علم البيان، وإنّ الشعر هو الوحيد من بين هذه المكوّنات الثلاثة الذي له خصوصية الوزن والقافية من دون قسيميه ـ النثر والسجع ـ فلا يمكن لمستمع

النثر والسجع أن يقول فيهما أنّه استمع شعراً كما لا يمكن أن تطلق صفة شاعر علىٰ المتكلّم والناطق بهما قطّ.

إذن علينا أن نتعرّف علىٰ أمرين: الأوّل منهما هو أنّه ما الذي كان يدركه المستمع لآيات القرآن؟ وما الذي كان يطرق سمعه عند إنصاته للآيات القرآنية ممّا كان يدعوه أن يطلق صفة شاعر علىٰ رسول الله ﷺ؟ والثاني منهما وهو أنّه ماذا قال أهل الخبرة من علماء وأدباء في القرآن الكريم وأبدوا به رأيهم بعد تطلّعهم وتضلّعهم في أمر الأدب العربي وفنونه في شأن القرآن الكريم؟

فلنبادر أوّلاً للإجابة علىٰ السؤال الثاني في معرفة ما قيل في القرآن الكريم.

فهذا ما قاله الدكتورطه حسين في كتابه (**مرآة الإسلام**):

«أمّا القرآن فهو المعجزة الكبرىٰ، التي آتاها الله رسوله (صلّىٰ الله عليه وسلّم)، علىٰ صدقه فيما يبلّغ عن ربّه سبحانه وتعالىٰ. والقول في إعجاز القرآن الكريم يكثر ويطول، وتختلف وجوهه، وتختلف فنونه أيضاً، فالقرآن: كلام لم تسمع العرب مثله قبل أن يتلوه النبيّ؛ فهو في صورته الظاهرة ليس شعراً، لأنّه لم يجر في الأوزان والقوافي والخيال علىٰ ما جرىٰ عليه الشعر، ثمّ هو لم يشارك الشعر في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه؛ فهو لا يصف الأطلال والربوع، ولا يصف الحنين إلىٰ الأحبّة، ولا يصف الإبل في أسفارها الطوال والقصار... وليس فيه غزل، ولا فخر، ولا مدح،

ولا هجاء، ولا رثاء، وهو لا يصف الحرب... لا يعرض من هذا كلّه لشيء، وإنّما يتحدّث إلىٰ الناس عن أشياء لم يتحدّث إليهم بها أحد من قبله، يتحدّث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه، ويتحدّث عن الشرك فيذمّه وينهىٰ عنه، ويتحدّث عن الله فيعظّمه ويصف قدرته التي لا حدّ لها»[١].

«وكان حكماء قريش والمنصفون منهم يسمعون القرآن حين يتلىٰ عليهم فيبهرهم بألفاظه ونظمه ورقّته حين يرقّ، وشدّته حين يشتدّ»[٢].

«وكان النبيّ علىٰ هذا كلّه لا يدّعي لنفسه معجزة إلّا القرآن ـ وقد صدق النبيّ وبرّ في ذلك ـ فقد كان القرآن معجزة أيّ معجزة. كان معجزاً بألفاظه ومعانيه ونظمه، لم يستطع أحد من العرب أن يحاكيه أيسر المحاكاة و...»[٣].

ونقلاً عن كتاب **التمهيد** لآية الله الشيخ محمّد هادي معرفة﵀ نذكر بعض ما قاله العلماء في هذا الشأن، فقد قال الراغب الإصفهاني بعد أن ساق الكلام إلىٰ أنّ الإعجاز المختصّ بالقرآن متعلّق بالنظم المخصوص، وبعد أن بيّن المراتب الخمسة التي يتألّف منها نظم الكلام قال: «والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه [أي الكلام؛ من نثر وسجع وشعر] بنظم ليس هو نظم شيء منها لأنّه لا يصحّ أن يقال: القرآن رسالة، أو خطابة، أو شعر، كما يصحّ أن يقال: هو كلامٌ، ومن قرع سمعه فصّل بينه وبين سائر النظم»[٤].

---

(١) مرآة الإسلام: ١٢٥.

(٢) مرآة الإسلام: ٤٠.

(٣) مرآة الإسلام: ١٠٧.

(٤) التمهيد ٤ / ٥٦.

وقال الشيخ الطوسي بعد أن أعرب عن رأيه حيث ذهب إلىٰ أنّ وجه الإعجاز في القرآن إنّما هو لاختصاصه بالفصاحة المفرطة:

«والذي يدلّ علىٰ ما قلناه واخترناه أنّ التحدّي معروف بين العرب بعضهم بعضاً ويعتبرون في التحدّي معارضة الكلام بمثله في نظمه ووصفه، لأنّهم لا يعارضون الخطب بالشعر ولا الشعر بالخطب، والشعر لا يعارضه أيضاً إلّا بما كان يوافقه في الوزن والرويّ والقافية، فلا يعارضون الطويل بالرجز، ولا الرجز بالكامل، ولا السريع بالمتقارب، وإنّما يعارضون جميع أوصافه، ثمّ ذكر قول الوليد بن المغيرة لمّا تحيّر حين سمع القرآن، فقال: سمعت الشعر وليس بشعر، والرجز وليس برجز، والخطب وليس بخُطَب...»[1].

فحاصل ما ذكرناه من الأقوال أنّ القرآن ليس بشعر وأنّه ذو نظم ووزن خاصّ به، وأنّه ذا فصاحة مفرطة وخارقة.

والمراد بالشعر إنّما هو الشعر العمودي الذي اعتمدته العرب في الجاهلية، وصار يتداوله الأدب العربي ويتوارثه مرّ الحِقب والعصور، وهو الشعر الموزون الذي يتألّف من وزن وقافية وهي البحور الستّة عشر بجميع مشتقّاتها التي كانت عليه العرب آنذاك.

فكلّ ما صدرت من أقوال ترمي القرآن بكونه شعراً لا غير، أو أنّه صار ينقض نفسه بنفسه لأنّ القرآن يدّعي قائلاً: ﴿**مَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ**﴾ و﴿**مَا هُوَ**

---

(١) التمهيد ٤ / ٦٩.

﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ وهو يحمل في طيّه الجمّ الغفير من أوزان الشعر، إنّما هو قول جاهل أو إقحام متحامل؛ وذلك أنّ للأدب قوانينه وموازينه العلمية، فلا يمكن تجاوزها أو تحميلها غير ما تبديه من قواعد وفنون وبيان.

أمّا الأوزان الشعرية التي يحملها القرآن فهذا ما سنتصدّىٰ له ونبيّنه من خلال البحث ليتبيّن لنا الغثّ من السمين وتتّضح لنا ماهيّة النظم والوزن الخاص بالقرآن وعلّنا نعلم ما هو وجه إعجاز القرآن.

الإعجاز البياني في القرآن الكريم:

ففي هذه المرحلة من البحث آنَ لَنا أن نجيب عن السؤال الأوّل الذي ذكرناه آنفاً وهو: ما الذي كان يدركه المستمع لآيات القرآن ويطرق سمعه حتّىٰ صار يطلق صفة شاعر علىٰ رسول الله ﷺ؟

لا يخفىٰ أنّ الكلام حول القرآن في مقالنا هذا إنّما هو من الناحية الأدبية لكلام الله أيّ الإعجاز البياني، وهذا هو أحد الاصطلاحات المعروفة في بحوث إعجازالقرآن، أمّا الإعجاز العلمي والتاريخي والتنبؤّات عن أحداث المستقبل فهذا أمرٌ آخر وجوانب أخرىٰ في إعجاز كتاب الله فلا نقصدها في البحث ولا نرمي إليها بغرض.

فكلّما سرنا في رحاب الكتاب الإلٰهي وبحثنا ونقّبنا وفتّشنا عن أقوال العلماء والأدباء وأهل الصنعة والفنّ، وأعملنا النظر وأرجعنا البصر وأمعنّا فيما تبديه الفكر من إعجاز الآيات الغرر فلا يدور الكلام ولا يقصد المرام في

معرفة كلام الملك العلاّم سوىٰ ما أشار إليه العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء من كلمة بينهم علىٰ حدّ سواء وهو أنّ كتاب الله عزّ وجلّ قد بلغ من الفصاحة والبلاغة الغاية القصوىٰ والمرتبة العليا التي لا يمكن أن يؤتىٰ مثلها في هذا المضمار بما بلغه من تفاضل الألفاظ والمعاني ، وأنّ لهذا الكتاب نظماً ووزناً خاصّاً به غير الشعر ، فهو ليس بنثر ولا سجع ولا شعر ، إذن لابدّ من الإشارة إلىٰ نقاط يمكن من خلالها تسليط الضوء علىٰ الإعجاز البياني في القرآن الكريم .

أ ـ القرآن الكريم ونظمه الخاص :

إذن تبيّن لنا أنّ للقرآن نظماً ووزناً خاصّاً به ، فهو لا يخلو عن وزن له إيقاعه ووقعه الخاصّ علىٰ ذهن القارىء وسمع المستمع ؛ ولكن كيف صار للقرآن هذا الوزن الذي صار يشعره ويلمسه البشر بما يملكه من حواس ومواهب وشعور كما يلمس ذلك من الشعر ، ويحكم أنّ للشعر أوزاناً وبحوراً ما ليس للقرآن منه شيء؟ فمن أين أتىٰ هذا الوزن إلىٰ آيات الكتاب المجيد وهو قرآن عربيّ مبين؟ وهذا ما أكّد عليه القرآن في آياته الغرر الحسان ، ولا محالة ولا غرو أنّه أدبٌ عربيّ محض ، ولا حاجة في ذلك إلىٰ إصدار حكم أو فرض ، فلتذهب الأفكار في الطول والعرض ، فليس لها إلّا أن تقرّ وتشهد أنّه رائعة البيان العربي الثرّ المبين الذي يتلقّاه الحبيب المؤيّد والرسول المسدّد أبو القاسم محمّدﷺ من لدن عزيز حكيم .

وهل يمكننا أن نقول أنّ وجود الأوزان الشعرية الموافقة لبحور الشعر العربي في طيّ آياته هي التي جعلت للقرآن هذا الوزن؟ وهل يمكن لهذه البحور ـ التي طالما أُشير إليها في الأبحاث الأدبية للقرآن ـ أن تطلي القرآن وتشمله بهذا النظم والوزن الخاصّ من أوّله إلىٰ آخره؟ إذ لم نمرّ علىٰ آية إلّا ونشعر ونلمس منها بوضوح هذا النظم والوزن الخاصّ المشار إليه في أبحاث إعجاز القرآن الكريم، وإنّ كلّ من أشار إلىٰ وجود الأوزان الشعرية في القرآن اعترف أنّ هذه الأوزان عُثر عليها في آيات عديدة من كتاب الله، قد بلغت إلىٰ حدّ مشهود ومعلوم لا يمكن إنكاره وإن كانت لا تشمل آيات الكتاب بأسرها.

إذن بما أنّ القرآن أدبٌ وبيانٌ عربيّ محض فعلينا أن نبحث وننقّب عن معرفة هذا الوزن الخاصّ بالقرآن في الأدب العربي وبيانه، هذا وإنّ الأدب العربي بما يحتويه من علوم وفنون فهو لا يخرج من أقسامه الثلاثة (النثر والسجع والشعر)، وإنّ الوزن لا نعثر عليه من بين تلكم الأقسام إلّا في الشعر، وإن كان للسجع نوعٌ من الوزن والوقع علىٰ ذهن القارىء أو المستمع له، إلّا أنّ إطلاق الوزن لا ينصرف في موازين الأدب والبيان العربي إلّا للشعر وليس للسجع ما للشعر من وزن ووقع واستئناس وانسجام وتشوّق إليه بين الناس.

ولمّا آل بنا الأمر إلىٰ معرفة النظم والوزن الخاصّ بالقرآن، وعلمنا أنّ الشعر هو المحتمل للأوزان والمختصّ به دون قسيميه في علم البيان كما

اتّضح وبان أنّ كتاب الله قد تظافرت به بحور الشعر وتفعيلاته بحيث لا يمكن لمدّع أن يدّعي إنها جاءت عن غير قصد بل علىٰ سبيل الاتّفاق كما يحصل مثله في كلام البشر؛ لأنّ وجود تلكم الأوزان والتفعيلات أضحت في آيات الكتاب الحكيم جمّة غفيرة بحيث لا يمكن تجاوزها والغضّ عنها فكيف يمكن أن يقال أنّها جاءت علىٰ سبيل الاتّفاق ومن غير قصد، وهذا هو الكتاب يصرّح في خطابه للرسول الأعظم محمّدﷺ ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّىٰ ٱلْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾ فكيف يمكن للحكيم العليم عزّ وجلّ أن تتظافر تلكم الأوزان والبحور في كلامه وآياته وحكمه وبيّناته من متشابهه ومحكماته علىٰ سبيل الاتّفاق ومن غير قصد، وأنّه سبحانه لا يعلمها ولا يعيها؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وأنّا يكون ذلك وهو سبحانه وتعالىٰ يتحدّىٰ فصحاء العرب وبلغاءها ويجاريهم ويباريهم في ميادين البيان أن يأتوا ولو بسورة من مثل سوره! أليس كلّ ذلك دليل علىٰ أنّ كتاب الله يحمل بياناً وعلماً وفنّاً فاق علم البشر وبيانهم وفنّهم وصناعتهم.

إذن لنا أن نقول: إنّ الأمر يدور مداره حول الشعر لأنّ الشعر هو الوحيد المحتمل للأوزان والتفعيلات، وإنّ الشعر العربي هو أقوىٰ صناعة أدبيّة في البيان العربي اهتمّ به العرب فشهدت لهم بذلك محافلها ونواديها وحواضرها وبواديها ووقائعها وعواديها؛ لما فيه من وزن وقافية تنشدّ إليه الأذهان والطبائع وكلّ حسٍّ مرهف، ولما يحمله من قوّة الأدب من استعارة ومبالغة ونعت وسائر أصناف وضروب فنون البيان العربي، هذا مع أنّ القرآن ليس

بشعر لأنّ سوره وآياته لم تأت علىٰ وزن وقافية، ولم نر شيئاً منها نُظم نظم الشعر، فليس للشاعر أن ينظم إلّا علىٰ بحر واحد من بحور الشعر العربي الستّة عشر المعروفة والمعهودة عندنا، ولم نر آية من آيات الكتاب الحكيم ولا سورة من سوره قد نُظمت علىٰ بحر من بحور الشعر العربي مع تظافر تلكم الأوزان والتفعيلات في كتاب الله تبارك وتعالىٰ؛ ولكن ومن أجل أن نتعرّف علىٰ ذلك النظم والوزن الخاصّ الذي تميّز به القرآن الكريم مع ما فيه من فصاحة وبلاغة بلغت الحدّ الأقصىٰ من تفاضل الألفاظ والمعاني لابدّ لنا أن نمرّ علىٰ صناعة الشعر عند العرب وتطوّرها بدراسة وقراءة مقتضبة:

ب ـ صناعة الشعر وتطوّرُها:

إنّ الشعر العربي الذي اعتمده العرب وركنوا إليه وأنسوا به أيّما إيناس واهتمّوا به أيّما اهتمام إنّما هو الشعر العمودي الذي يجري رويّه علىٰ بحر واحد من بحور الشعر، وذلك حسب ما يملكه الشاعر من قوّة الملكة الشعرية، فتجود قريحته بما يختاره وحيه الشعري من تلكم البحور، هذا هو ما مضت عليه العرب في صناعة الشعر منذ جاهليّتها وحتّىٰ يومنا هذا، فإنّ أصل الشعر المعتمد في الأدب العربي إنّما هو الشعر العمودي، ولكن مع مرور السنين والدّهور وتطوّر الأدب في جميع مجالاته وشتّىٰ ضروبه وفنونه قد تطوّر الشعر إلىٰ أنواع من الفنون والصناعات الشعرية مثل: الدوبيت أو الرباعي والتخميس والتشطير والموشّح والشعر الحرّ، وإذا فتّشنا كتب الأدب

ونقّبنا عن الصناعات الأدبية الشعرية نرىٰ كتاب **شعراء الغريّ** ينقل إلينا صناعة أدبية امتاز بها شعراء وأدباء النجف الأشرف دون غيرهم من سائر البلدان العربية وحواضر وحواضن الأدب العربي، وهي ما يعبّر عنها بالمقطوعة أو المقطعوعات الأدبية ربّما تكون أشبه بالسجع ولكنّ الوزن الشعري واضحة أعلامه في تلكم المقطوعات.

فكيف تطوّر الشعر العربي من الشعر العمودي إلىٰ تلكم الصناعات الشعرية التي ربّما يستغرب منها شعراء الجاهلية والقرون التي خلت من قبل، وذلك لأنّها لم تشهد مثل هذه الصناعات والتصرّفات والإنجازات الأدبية ممّا صنعها فكر البشر وطبعه وحسّه المرهف بما يملكه من قوّة فصاحة وبلاغة وملكة في الأوزان الشعرية.

إذن الشعر العربي يمكن للأديب الأريب اللبيب أن يتصرّف به ويصنع منه أشعاراً لم يشهدها الأدب العربي من قبل، وكلّما درسنا هذه الصناعات الجديدة وتمعّنّا بها ودقّقنا بها وقلّبناها نراها إنّما هي مشتقّة من تلكم الأوزان التي بُني عليها الشعر العمودي، وهي البحور الستّة عشر ومأخوذة منها.

ومروراً بتاريخ الشعر العربي ومعرفة أوزانه نرىٰ أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ) قد اكتشف لنا تلكم البحور والأوزان بما وضعه من دوائر التفعيلات، وعليه قامت دراسة الشعر ومعرفة أوزانه وبحوره بكلّ مشتقّاتها، ومنها صار يأخذ الأدباء والشعراء تلكم التفعيلات ويتصرّفون بها وفقاً لتلك الموازين ولما يتقبّله الطبع البشري من معرفةٍ وأنسٍ بالنغم

الشعري، وكذلك ضرب لنا صفيّ الدين الحلّي (ت ٧٥٢هـ) أمثالاً على تلكم البحور تسهيلاً لمعرفتها ونيلها لهواة الشعر وبغاته، فليس ما ذكرناه من تطوّر الصناعات الشعرية إلّا من تلكم البحور، وليس الشعر الحرّ إلّا هو من تكسير تلكم الأوزان، وليس للمقطوعات الأدبية إلّا وهي مأخوذة من تلكم التفعيلات.

فهذا هو كلّ ما صنعته يد الإنجاز البشري من صناعات شعرية بحيث لم تخرج بكلّ ما جاءت به من تصرّفات من إطار الوزن الشعري المستلهم من تلكم البحور التي قام عليها الشعر العمودي منذ الجاهلية وحتّى يومنا هذا.

إذن فإنّ الصناعة الشعرية إنّما هي قائمة على تلك التفعيلات التي تشكّل لكلّ شعر نظمه ووزنه الخاصّ من البحور الشعرية، فلا يمكن للشاعر أن يخرج عن إطارها ومدارها مهما تطوّرت صناعة الشعر، كما لا يمكن للشاعر أن ينظم قصيدة من بحرين؛ أي أنّه لا يمكن أن تنسجم تفعيلات بحرين في أبيات قصيدة واحدة مهما بلغت قدرة الشاعر من قوّة الفصاحة والبلاغة وأخذه برقاب القوافي وتسلّطه على الأوزان؛ فإنّ جميع مرتكزاته الذهنية من فصاحة وبلاغة وتراكيب اللفظ والمعنى وملكته الشعرية ومعرفته ببحور الشعر إنّما تصبّ في بحر واحد في إنشاء قصيدة ونظمها، وعلى سبيل الفرض لو استطاع الشاعر أن يأتي ببحرين ـ أي يجمع بين تفعيلتين في القصيدة الواحدة ـ لأخلّ هذا بشعره فيضحى الشعر لا وزن له كما يخلّ بفصاحته وبلاغته وهذا ما يضحك الثكلى!

فعلى هذا لا يمكن للقرآن أن يكون شعراً وإن تكاثرت الأقاويل تهجّماً عليه، فما تلكم التهجّمات إلّا نزعة عناد لا رأي سداد، إذن فما الذي جعل للقرآن نظماً ووزناً خاصّاً؟ وقد علمنا أنّ وجود الأوزان الشعرية بمفردها مع شيءٍ من التفعيلات لا يمكن لها أن تشكّل نظماً ووزناً لا للقرآن ولا لغيره، فما هي الصناعة الأدبية في القرآن الكريم؟

ج ـ الصناعة الأدبية بين يدي الإعجاز:

إنّ تظافر أوزان الشعر في كتاب الله مع التفعيلات لا يشكّلان نظماً ووزناً خاصّاً بالقرآن الكريم، وإنّ الأمر أجلّ وأكبر من ذلك بل أدقّ وأعجب، فعندما ينكشف لنا هذا السرّ ويناط عنه الستر هناك نرىٰ العجب العجاب في بيان كلام الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويبدو أنّه أعظم إعجاز في باب الإعجاز البياني للقرآن الكريم والصناعة الفريدة التي لا يمكن لشاعر مهما بلغت قدرته أن يأتي بمثله حتّىٰ ولو كان الإنس والجنّ بعضهم لبعض ظهيراً.

فهلمّ بنا هنا ـ ولمّا بلغ بنا المطاف، إلىٰ معرفة سرّ خفيّ الألطاف وما علمناه من صناعة الأدب الشعري في اعتمادها علىٰ الأوزان والتفعيلات ـ أن نأخذ بعنان علم العروض ونعرضه علىٰ القرآن الذي أنزله الرحمٰن خالق الإنسان ليعلّمه من سحر البيان وفنّه ورقّته ودقّته وعذوبة لحنه وكلماته لنرىٰ كيف انسجمت تلك البحور والتفعيلات في حشو آيات الكتاب لتملأ كلّ

مفاصله وتراكيبه وأركانه وتعاريبه، فقد جاءت آيات الكتاب الحكيم مركّبة من تلكم الأوزان والتفعيلات بحيث إنّك ما مررت بآية إلّا ووجدتها منسوجة بذلك النسيج، ورأيت تلك الأوزان والتفعيلات قد أخذت بجميع مفاصل الكلام فنسجت به نسجاً وحبكت به حبكاً ورصّت به رصّاً وشكّلت هندسة خاصّة بها بحيث خرجت من مدار الشعر وموازينه وقلبت كلّ معاييره رأساً علىٰ عقب، فتجاوز كتاب الله قواعد الشعر وميزانه، وخرق منطقه وفاق بيانه، وجاء بالعجب العجاب، وبصناعة عجزت عن مجاراته الألباب، فهو القول الحقّ وفصل الخطاب، فنزّله سبحانه تنزيلا وقال: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيْلاً**﴾ من حيث نسجه بحراً وتفعيلا، فأمر نبيّهﷺ ﴿**وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيْلاً**﴾ فصار للقرآن ذلك الوزن الخاصّ به وقال عزّ من قائل: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَه**﴾ فكيف ينبغي للحبيبﷺ أن يجعله شعراً وهو بهذا التركيب العجيب.

فانظر إلىٰ البسملة من كلّ سورة لترىٰ كيف انسجمت بها ثلاث تفعيلات من بحر المتدارك وتفعيلة واحدة من بحر المديد، وانظر إلىٰ الآية الأولىٰ من سورة الفاتحة لترىٰ كيف جاء بها بحر البسيط مخروم الآخر، والآية الثانية منها كيف جاءت بها تفعيلتان من المتدارك وتفعيلة من المتقارب، والآية الثالثة من الرجز، وهكذا امض في كتاب الخالق البارئ لترىٰ العجب العجاب ممّا صنعته يد الإعجاز من تراكيب البحور والتفعيلات، وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**ذَلِكَ ٱلْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيْهِ هُدَىً لِّلْمُتَّقِيْن**﴾ لترىٰ

كيف انسجم به بحر المديد مع تفعيلة من المتقارب ومن المديد، وانظر إلىٰ أوّل سورة مريم لترىٰ (فاعلاتن فعلن فعلن فعلن...)، واقرأ قوله تبارك وتعالىٰ من سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ وانظر إلىٰ بحر المتدارك ثمّ ما يتلوه من تركيب تفاعيل أخرىٰ من سائر البحور، وهذا هو شأن كتاب الله تبارك وتعالىٰ في كلّ سُوَرِهِ وآياته من ألفه إلىٰ يائه، أي من أوّل سورة الحمد وحتّىٰ سورة الناس.

ولقائل أن يقول: إنّ هذه التفعيلات يمكن أن نعثر عليها في النثر وفي خطب العرب وبيانها.

أقول: نعم إنّ هذه التفعيلات إنّما هي تركيب، من نفس الكلم العربي، فهي لا تنفكّ أن تتواجد من أقلّ تركيب، ولكن أن تنسجم وتأخذ بجميع مفاصل الكلام مع الأوزان الشعرية فهذا ما لا أراه في كلام ولا خطبة من خطب العرب لا في سجعها ولا في نثرها.

وهذا هو ما كان يقرع مسامع العرب آنذاك عند استماعهم إلىٰ القرآن، فكانوا يتّهمون النبيّ ﷺ أنّه شاعر ومعلَّم مجنون لما كانوا يرون في نسيج كلام الله العجيب في أسلوبه من أوزان شعرية وتفعيلات متراصّة في كلّ مفاصل الكلام، قد شكّلت له هذا النظم والوزن الخاصّ الذي كان يأخذ بمجامع قلوبهم فينشدّون إليه فأدهشهم وحيّرهم.

فإنّ هذا الإعجاز البياني مع ما للقرآن من أسمىٰ مراتب الفصاحة والبلاغة، وما احتواه من قصص وعبر، وأحكام، وأمر ونهي، وسائر تراكيب

اللغة، وأنواع العلوم، وأصناف النعوت، والمعجزات المشار إليها والمذكورة في كتب التفسير وكتب إعجاز القرآن، يشكّل المعجزة العظمىٰ التي لا يجاريها ولا يباريها أحد.

وهكذا تتهافت أمام عظمة القرآن كلّ الأقاويل والأراجيف، والترّهات البسابس، وتتساقط كتساقط قزع الخريف التي تسفو بها الريح أو تصبح كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف.

الإعجاز البياني بين الخالق والمخلوق:

وفي ختام هذا المقال أقول: إنّي ما رأيت هذا الإعجاز إلّا في كتاب الله وفي كلام أئمّة الهدىٰ المعصومين عليهم السلام وفي أدعيتهم؛ فانظر إلىٰ فقرات دعاء كميل «اللهمّ إنّي أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء» لترىٰ كيف نسجت به تفعيلات المتدارك والمديد والمقتضب وتفعيلتين من الوافر ثمّ تفعيلة من المديد، وانظر إلىٰ هذه الفقرة منه: «يا سيّدي يامن عليه معوّلي يا من إليه شكوت أحوالي» لترىٰ فيه البحر الكامل، وانظر إلىٰ دعاء الصباح «اللهمّ يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه» لترىٰ تفعيلات المتدارك والرمل والوافر والمتقارب، وكذا «سرّح قطع الليل المظلم» (فعلن فعلن فعلن فعلن)، ولو دقّقت في حديث الكساء لرأيته مليئاً بتفعيلات بحر الرجز وكذلك الزيارة الجامعة.

انظر إلىٰ حديث الكساء المروي عن جابر عن سيّدة النساء فاطمة

الزهراءعليها السلام دوحة أهل الولاء لرأيت السهل الممتنع، من حديث رفع، وكلام كأنّه من بحر الرجز انتزع، ومن أجله صنع، وقد نظمته في أرجوزةٍ إليك بعض أبياتها:

هذا حديث الخمسة الأطهار ... وقد أتىٰ **عن جابر الأنصاري**
بسند يرويه في الأنباء ... وذاك **عن فاطمة الزهراء**
تلك **عليها** في الورىٰ تقام ... تحية يرفقها **السلام**
بنت رسول الله صلّى الله ... **عليه** ذا **وآله** الأنباه
يحكيه نصّاً ما حكته العالمة ... **قال سمعت** ذات يوم **فاطمة**
ما **أنّها قالت** بداري قد **دخل** ... **عليّ** أحمد **أبي** بيتي حلّ
وهو **رسول الله** في الأنام ... **في بعض** ما مضىٰ من **الأيّام**
فقال لما دخل **السلام** ... **عليك يا فاطمة** احترام
فقلت ردّاً للسلام ما بدا ... **عليك** منّي **السلام** يا هدى
قال لها بُنَيَّ **إنّي أَجِدُ** ... **في بدني ضُعفاً** عليَّ يَرِدُ
فقلت حينها على انتباهِ ... **له أعيذك** أبي **باللهِ**
يا أبتاه من حديث **الضعف** ... يحميك ربّي إنّه ذو اللطف
فقال يا فاطمة الإحسان ... **إيتيني بالكساء** ذا **اليماني**
ألا **فغطّيني به** علانية ... علّيّ أفيق بعد هذا ثانية
ها **فأتيته** على امتنان ... ثمّة **بالكساء** ذا **اليماني**
ألا **فقد غطّيته به** مدىٰ ... **وصرت أنظر إليه** كمدا

هـا **وإذا وجـهه** بـالنور الأغـر ذا **يـتلألؤ كأنّـه** القـمر
والبـدر فـي ليـلة تـمّ حـاله لدىٰ **تـمامه وفـي كـماله**
هـذا **فـما كـانت** هـناك **إلّا** مـن الزمـان **سـاعة** تـخلّىٰ
هـا **وإذا بـولدي** البـرّ **الحسـن** **قد أقـبل** السبط وأدبـر الحَـزَن

وللحديث صلة وما ذكرناه علىٰ سبيل الاختصار.

وبهذا أرىٰ يتهاوىٰ رأي كلّ من مضىٰ بغير رشاد، ونطق بغير سداد، وبه ينتقض كلّ ما أبرم عن عناد، بذريعة أنّه حديث ضعيف الإسناد، أنّىٰ وهم سادة الأسياد، وآل أفصح من نطق بالضاد، وخيرة ربّ العباد.

ولو رأيت القـوافـي اللامـعة فـي الزيـارة الجـامعة[1]، ذات العـبارات الساجعة، لرأيتها بنضد التفاعيل بارعة، ببراعة شارعة للأغيار مانعة، ببلاغة ناصعة خافضة رافعة.

وإنّ ما أدهشني وزاد في إعجابي هو تظافر تفعيلات بحر الرجز وبحر المتدارك في آيات الكتاب وفي خطب أئمّة الهدىٰ وأدعيتهم وزياراتهم، وكما رأيته أيضاً في خطبة العقيلة زينب في مجلس يزيد ابـن مـعاوية (لعـنة الله عليه) ولا عجب أن نرىٰ ذلك الإعجاز وتلك الكرامة منهم عليهم السلام فهم من غذّاهم الله بعلمه، وأودعهم أسراره، وعلّمهم تفسير الكـتاب وتأويـله، ومنحهم جوامع الكلم، وجعلهم سادة الأمم، وهم نور من حضيرة القـدس الإلٰهي.

---

(١) أنظر مقالنا تحت عنوان القوافي اللامعة في الزيارة الجامعة في مجلّة تـراثـنا العـدد (٨٣ ـ ٨٤).

وإنّي المتطفّل علىٰ موائد الأدب، أدعوا أدباء العرب وشعراءها عامّة، كما أدعو وأحثّ الشعراء والأدباء من أبناء طائفتي خاصّة أن يتوجّهوا إلىٰ كتاب الله وأن يأخذوا هذا المقال بعين الاعتبار ويدرسوا الأمر بكلّ حصافة وبما أحاطوا به من الأمر خبراً ليلمسوا من قريب هذا الإعجاز الذي فاق كلّ إنجاز.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم السيد محمّد علي نجل السيّد راضي الحكيم

صبيحة يوم الأربعاء / جمادىٰ الآخرة سنة ١٤٣٩ هـ

مدينة قم المقدّسة